القسم الثاني

شخصيته العلمية

مكوناتها :

إذا كانت للعبقرية عوامل فطرية ، يوجد العبقري . ومع هذه العوامل ، فإن أثرها ، وتقديرها ، يرتبطان أشد الارتباط بعصر العبقري ، وبيئته . وليس واجبا شذوذه عنها ، وعدم تأثره بها . وإن كنا لا نفهم من هذا ألا تكون له ميزة ، يسمو بها عما حوله ، ويتألق نجمه بسببها ، وقد غارت بقية النجوم ، أو تكاد .

وهذا ما دفع بي إلى الحديث في شيء غير قليل من الإسهاب عن عصر المقري ، وعن حياته الخاصة ، والتعمق فيها ، ومحاولة تعليل بعض الظواهر التي تبدو من حين لآخر في وضوح قليل مرة ، وفي غموض شديد مرة أخرى : لما تمتاز به نفسية المقري . وإن شئت قلت أهل المغرب عامة من الاحتراز والارتياب .

تبين بعد دراسة عصره ، ومعرفة حياته أن شخصيّة المقري العلمية ، كانت قوية في عصره . ينظر إليها المعاصرون نظرة تقدير وكمال ، سيما في المشرق الذي وجد في أبي العباس سمة الاطلاع ، وسحر البيان ، وقوّة الحافظة .

أما شخصيته التي تلوح لنا من خلال آثاره ، فإنها تتجلى في اطلاعه على مصادر كثيرة فيها القيّم ، سيما مصادر الأدب المغربي ، والحضارة الأندلسية التي لم يعثر على أكثرها إلى الآن . وكان اطلاعه عليها بالمغرب ، وبمكتبة أبي المعالي زيدان خاصة . وهذا ما أكسبه تقديرا فائقا في المشرق — بالخصوص — الذي فقد ثروته الفكرية . وهو أيضا لا يعلم من أمر المغرب كثيرا ، وما يزال . . . وتتجلى شخصية أبي العباس أيضا في قوة حافظته التي كان يتفوق بها منذ صباه قال « وكنت في حال الصغر أحفظ كثيراً بالنسبة إلى أقراني فحدثني مولاي العم . . . سعيد بن أحمد المقري أن بعض شيوخه من أهل المسان ، كان يطالع الكراس الكبير بسرعة ، فيحفظ ما فيه من وقته من غير تأمل ، ولا بطء البتة ، فانكسرت نفسي (١) » ومن عناصر شخصيته التي تشعر بها بداءة ، قوّة بيانه ، وسلامة لغته ، سيما في عصر ، قد أصبح البيان فيه ضربا من ضروب رصف الألفاظ الذي خرج عن حد التكلف المرهق إلى انعدام الحيوية انعداما تاما .

ولقد لفت حفظ الشيخ المغربي هذا نظر المشارقة .

درس غريب كل يوم له * يملى ، ولكن حفظه أغرب (٢)

---

(١) ص ٢١٣ من فتح المتعال نسخة الصادقية .

(٢) من قصيدة قالها عبد الرحمن العمادي في المقري . انظر نفح الطيب ج ٣ ص ١٦٨

ولكن ما أشدّ حفظ المغاربة ، وما أضعف ملكة التصرف فيهم (١) وهذا ما تجلى في المقري أيضا كما سنرى .

إذن فعبقرية المقري ، لم تتجاوز الحفظ ، والدأب في التنقيب عن الكتب ، واستيعاب ما فيها ، ولولا ما في نفح الطيب من شذور ونقول ، تسرّ في غيره : وما في أزهار الرياض من تعريف بالحركة العلمية في المغرب لكان المقري مثقّفا عاديا ، بينه وبين مخلوط اسمه ، جمود عصره ، وضعف تفكيره ، وانغماسه في مظاهر التأخر والانحطاط التي كانت تسبح فيها بيئته ، وكان يشيد بعضها أحيانا . ومن هنا كان أبو العباس قريبا من عصره أشد القرب ، يمثله في أكثر المظاهر أحسن تمثيل .

وليس هذا مغالاة ، وإنما هي الحقيقة يدركها المتجرد ، ومن وعى فقرات ترد خلال كتبه . سيما النفير المشهور منها . ومن يدرك ينصف .

طريقته في التأليف :

يبدو من خلال كتب أبي العباس أحمد المقري ، أنه رجل قوي الحافظة ، واسع الاطلاع ، لا يعرف السأم إليه سبيلا . فهو إذا قصد الكلام في موضوع معين ، فإن ذاكرته تأبى عليه الوقوف عند حدوده ، بل لا بدّ أن يتناول موضوعات أخرى ، تمس من قريب . وربما من بعيد الموضوع المراد ، ولعله يرى من التقصير ألاّ يطاق العنان لقلمه ، وأن يُبقي

(٣) راجع ما قاله ابن خلدون في هذه الاشارة في مقدمته ص ٣٧٧ المطبعة البهية .

شيئا ما فقط . سيما وهو يرى في ذلك التنقل تريحا للقارئ ، وإعانة للنفس الملول على المواصلة (١)

ومن هنا كثر الاستطراد في تأليفه ، حتى عدّه بعض الأدباء « حافظ المغرب جامع البيان (٢) » فهو وإن قلّد لسان الدين بن الخطيب في كتابته ، كما سيأتي إلاّ أنه عاز عليه بهذه الظاهرة التي تصله بأبي عثمان . ولكن إذا تأملنا في استطرادات المقري ، نجد أكثرها نقولاً تتكرر أحايين تكراراً يؤيد ما أشرت إليه سابقاً من أن المقري يتحكم فيه قلمه ، ويؤمن بضرورة كتابة كل ما يحفظ في الموضوع الذي يتكلم فيه ، سيما وقد ألف غالب كتبه في المشرق حيث لم تكن لديه المصادر التي كان اطلع عليها بالمغرب : والتي تكون له مادّة ثرة في تآليفه ، لو كانت في متناوله . أما وقد حرم منها : فلا أقل من ذكر ما أسعفته به حافظته الجبارة .

وهذه الشذور التي ينقلها لنا المقري دون تمحيص ، أو تحقيق ، كما أشار إلى ذلك بنفسه (٣) فهي ، وإن أفقدت كتبه وحدة الموضوع ، وتركيز البحث . فإنها أفادتنا فائدة عظيمة : لأنها تشمل رسائل هامة تؤرخ لنا ناحية من نواحي الحياة إذاك : ووثائق تاريخية ذات قيمة ؛ وتشمل أيضا نقولا مطولة عن كتب مفقودة الآن . كانت موجودة بالمغرب حينما كان المقري هناك ، ولكن شغفه هذا بالاستطراد ، يجعله أحيانا ينسى الموضوع

(١) انظر نفح الطيب ج ١ ص ١٢١
(٢) خلاصة الأثر ج ١ ص ٣٠٢
(٣) راجع النفح ج ١ ص ٢٧١

المقصود ، فيتركه ناقصا ، ويتجه إلى موضوعات أخرى تتصل به ، وعند ما يشعر بأن سفره ، قد شحط ، ينبئنا برجوعه بعد ما يذكرنا بأن « الحديث ذو شجون » وقد لا يعود ، وهو واع لطريقته هذه ، ويرى فيها تسهيلا للقارئ ، فاستمع إليه يقول « وكثيراً ما خرجت من الشيء إلى ما يناسبه وبدانيه وربما أبعدت النُّجْعَة (١) ، ثم وقمت الأوبة والرجعة ، على رغم أنف قالي ذلك وشانيه ، وقرّبت بذلك كله شاسعاً ، كي تسهل مؤنته على معانيه (٢) »

ويخبرنا أيضا أنه متبع في طريقته تلك ، لجماعة من الأئمة في مصنفاتهم ، وحلقات دروسهم التي كانت تغذو العقل والوجدان . أيام كان يُحتسب للعقل والوجدان حساب في الثقافة الإسلاميّة ، وينقل قول أبي حنيفة : الحكايات عن العلماء . أحبّ إليّ من كثير من الفقه ؛ لأنها آداب القوم .

مؤلفاته :

كان المقري شغوفا بالتأليف ، يحن إلى القلم حنين الولهان لمناجاة أليفه . فها هو ذا يجلس تجاه رأس الرسول عليه الصلاة والسلام . يكتب من وقت الضحى إلى الظهر ؛ ليخرج لنا كتابا على الصفة التي رغبها في خمسة عشر يوما : وها هو ذا يمسك بالقلم تحت سماء القاهرة ، يداعب نسيم النيل

(١) يقال : نجع القوم الكلا : ذهبوا لطلبه في أماكنه . ومنه النجعة : السفر لطلب الكلا . وهي اسم من النجوع .

(٢) أزهار الرياض ج ١ ص ١٥

لحيته المغربيّة التي بدأ يغزوها الشيب : ليؤلف لنا معلمة تاريخية ، وأدبية في أخبار فردوس مفقود في أقل من عامين ، رغم ألم الغربة ، ومتاعب العيش .

وحب المقري للكتابة مع حفظه العجيب ، هو الذي مكنه من تأليف عشرات الكتب رغم قصر حياته ، فهو يقول في إحدى الإجازات قبل شروعه في تأليف النفح :

ولي تآليف على العشرينا * زادت ثمانيا حوت تعنينا (١)

وهذه التآليف العديدة مختلفة القيمة ، فمنها القيم : ومنها المفيد في بابه : ومنها العديم الجدوى إن شئت . تُرى ما الجديد في « إضاءة الدجنة . . . » وما شعور القارىء لكتاب « الجمان في أخبار الزمان » إن ثبت أنه له ، سوى التأسّف على الوقت الذي قضاه في الإتيان عليه . أما « فتح المتعال . . » فإن طرافة الموضوع ، وندور التأليف فيه ، يضفيان عليه شيئا من حرمة الباحثين ويضفي عليه شيئا كثيراً من التقديس ، حنين المسلم لكل ما يتعلق بأخبار الرسول عليه الصلاة والسلام . وإذا تجاوزنا هذه الكتب المتفاوتة في قيمتها إلى نفح الطيب ، وأزهار الرياض ، فسنجد شخصية المقري قوية ، وينبوعه غزير المياه . عذبها غالبا .

هذا ما أرى قوله في كتب أبي العباس التي وصلتنا ، أما أن نقول ، كما قال الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد « صنف المقري كتبا كثيرة

---

(١) نفح الطيب ج ٣ ص ١٩٨

كلها ممتع ، وكلها مفيد أعظم الفائدة (١) » فإننا نكون قد افترينا على التاريخ ، وقلنا خلاف ما نعتقد ، والموجود . وسأتحدث عن مؤلفات المقري في شيء غير قليل من الإسهاب ؛ لأنها لم تمحص سابقا ؛ وللأخطاء التي وقعت فيها بعض المصادر .

نفح الطيب

أ ـ قيمته في التعريف بالأندلس :

حقا إن فكرة تأليف نفح الطيب أصلها رغبة ملحة في ترجمة رجل واحد ، هو ابن الخطيب ، ولكن المقري أراد بعد ذلك ـ كما سيأتي ـ أن يتوسع في الحديث عن الأندلس . إذن فهو لم يُقصر كتابه الضخم على أخبار مترجمه ، حتى نعد ذلك إسرافا منه ، كما وصفه بذلك بعض الأدباء (٢) ، ولكنه جعل صاحب الترجمة مركز الدائرة معارف تاريخية ، وأدبية ، وعلمية . وبهذا كان نفح الطيب أوفى المصادر العربية عن تاريخ الأندلس وآدابها . واستمع لرجل لعله الوحيد من المحدثين الذين انتقدوا بشدة صاحب النفح يقول « اعلم أعزك الله ، أنه لا يزال نفح الطيب من أعظم المراجع التي يعوّل عليها المحققون في أخبار الأندلس برغم كل ما عليه من مآخذ ومغامز ، وما

(١) ص ٥ من مقدمة نفح الطيب .

(١) انظر ص ١٨٨ من « اعجام الاعلام » ط مصر س ١٩٣٥

فاته من مباحث ومسائل ، وذلك لأن صاحبه اتصل بكتب كثيرة لم يتيسّر لغيره الاطلاع عليها ، وشافه في الشرق والغرب عدداً كبيراً من الجلّة ، وحاضرهم (١) »

فنفح الطيب ، وإن كان كتاب أدب قبل أن يكون كتاب تاريخ إلاّ أن أخذ المؤلف عما يربو عن مائة كتاب أغلبها مفقود ، والمعلومات التي ترد خلال حديثه حيث لا يتوقع ورودها ؛ لعدم اعتنائه بالتنظيم والتنسيق ، جعلا كتابه غنيًا ، وافر المادة في حياة الأندلسيين وإذا كان المقري لم يفصل لنا الوقائع الشداد ، والمعارك التي دارت في دور النزع الأخير ، كما قال شكيب أرسلان (٢) ؛ فلأن الكتاب الذي ينقل عنه كان مختصراً (٣) ؛ ولأنه يتعرض لذلك في مناسبات مختلفة كعادته ، فهو مثلا في أزهار الرياض ، ينقل رسالة لمجهول يبدو أنه من معاصري سقوط غرناطة ، يتحدث فيها عن نقض ملك قشتالة لعهوده إزاء المسلمين ، وما فرضته محاكم التفتيش على المخالفين ، وقصيدة لأبي العباس أحمد الدقون أحد علماء المغرب في القرن التاسع عنوانها « الموعظة الغراء بأخذ الحمراء » يرثي فيها الأندلس ، وينقل

(١) الطلل السندسية ١ ـ ١٥١ لشكيب ارسلان .

(٢) انظر « مختصر تاريخ الاندلس » الذي ذيل به ترجمة رواية « آخر بني سراج » لشاتوبريان ط مصر س ١٩٢٥

(٣) اهم مصدر اعتمد عليه المقري في اخبار الدور الاخير من حكم المسلمين باسبانيا هو كتاب « أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر » المجهول المؤلف الذي نشره في مونيخ س ١٨٦٣ م المستشرق الالماني ملر (١٨٣٢ – ١٨٩٨ م) مقرونا بترجمة المانية . ونشره ايضا شكيب ارسلان عن النسخة الاوروبية مع « آخر بني سراج » س ١٩٢٥ ولقد تم تأليف هذا الكتاب س ٩٤٧ هـ .

لنا أيضا رسالة كتبها أندلسي متنصّر إلى بايزيد الثاني التركي ، يستغيث به ، ويصف ما يصيب العرب المتنصرين من ديوان التحقيق (١) . ولعل أمير البيان آخذ المقري حين كان يؤمن بوجود كتب في شمال افريقيا تعرضت لنهاية الأندلس . أما بعد أن بيّن الواقع خلاف ذلك ، فإننا نستطيع أن نقول : ليس بعيداً أن يكون قول الأستاذ ليفي بروفنسال « إن نفح الطيب هو الوثيقة الوحيدة التي في أيدينا عن حادثة خروج العرب النهائي من اسبانيا » صحيحاً . والذي زاد في قوّة شخصية المقري في النفح هو حرارته في الكتابة عن تاريخ الأندلس ، وحب المسلمين بها ، فهو زيادة عن الألم الذي يشعر به حين يتذكر المصير الأليم لوزير الحمراء ابن الخطيب ، ذلك المصير الذي كان مقدمة كتبها المسلمون أنفسهم لصفحات مادتها الفجائع والأهوال ، ومدادها الدموع والدماء ، فإنه شاهد بنفسه أذيال المأساة .

أجل لقد وقع عند ما كان المقري بفاس س ١٠١٧ هـ حادث أذكى الذكريات الشاجية ، هو نفي « الموريسكيين (٢) » أو العرب المتنصرين من

---

(١) راجع أزهار الرياض ج ١ ص ٦٩ - ١٠٤ - ١٠٨

(٢) انظر تفصيل هذا الجلاء في كتاب « نهاية الاندلس » للاستاذ عبد الله عنان ص ٢٢٤ ط القاهرة س ١٩٣٩ وفي مقال كتبه فضيلة الشيخ الطاهر محمد الطاهر ابن عاشور بعنوان « مصير الاندلسيين » نشر ضمن نشرية الخلدونية س ١٩٣١ ونشر أيضا في حاضر العالم الاسلامي ج ٢ ص ٥٩ وقد نبهنا الشيخ في مقاله إلى وجود كتاب قيم هو « نور الارماش في مناقب سيدي أبي الغيث القشاش » للمنتصر القفصي مخطوط بخزينة جامع الزيتونة رقم ٣٨٨٣ وهو يفيد من يريد دراسة المجتمع التونسي إذاك . وهذه ميزة كتب المناقب . سيما وكتب التاريخ الاسلامي لا تتعرض لجميع نواحي الحياة .

اسبانيا ، وشاهد الجموع الغفيرة تفد على المغرب ، وترجع إلى الإسلام ، وهي في ضنك شديد ، ومظهر مؤلم ، ترك هذا المظهر في نفسه آثاراً عميقة ، ودفعه إلى زيادة التنقيب عن تاريخ الأندلس المليئ بالنشوة ، نشوة السرور ، ونشوة الألم . وما أدراك ما نشوة الألم ! !

ب ـ وبعد ظهور « المغرب » :

قد أشرتُ إلى أن نقل المقري عن كتب مفقودة ، أكسب كتابه قيمة خاصة .

وإذن فكلما عُثر على كتاب يؤرخ لنا الأندلس من الكتب التي كنا نحسبها انعدمت ، وينقل عنها المقري ، تنقص هذه القيمة شيئا ما ، ولكن هل تنقص بهذه الصورة التي يحدثنا عنها الدكتور شوقي ضيف في تقديمه لكتاب « المُغرِب في حُلَى المَغْرب » حين يقول ص ١٩ « . . . فكذلك ما نقرأه في نفح الطيب من أشعار أندلسية ، هو الآخر إيجاز وتلخيص لما كتبه مؤلفو المغرب عن شعراء الأندلس . وبمجرد أن يخرج هذا النص للباحثين ، سيرون رأي العين أن نفح الطيب إذا استثنينا مقدمة المقري عن رحلته إلى المشرق ، وبعض من ترجم لهم ممن حجوا البيت الحرام ، وما كتبه في خاتمته عن إخراج المسلمين من الأندلس ليس إلاّ نقولاً عن المغرب . وأخذ المقري هذه النقول دون أن يعين مصدرَها من المغرب في الكثير الأعم منها . حقاً إنه سمّى علي بن سعيد عشرات المرات ،

ولكنه حاول في أغلب الأحوال أن يضلّل القارئ، فنقل عنه دون أن يسميه مراراً وتكراراً، وأحياناً كان ينقل عنه. ويزعم أنه ينقل عن الحجاري في «المُسهب» ونحن نعرف الآن أن «المسهب» تسلّمه عبد الملك بن سعيد، ولم يخرج إلى الناس إلاّ في هذه الصورة الجديدة من المغرب التي أعطاها شكلها النهائي علي بن موسى بن سعيد، وعلى شاكلة ما صنع المقري بالحجاري صنع بقية المصنفين الذين منهم مؤلفو المغرب، من مثل الرازي، وابن حزم، وابن حيّان، وابن غالب، والشّقُندي، وغيرهم ممن يزخرف بهم كتابه» ويقول ص ٢٠ «وما أشبه المقري في ذلك بشخص عمد إلى نسيج متصل ملتحم، ففصل بين خيوطه، بل قل نقضها أنكاثاً من بعد قوّة» ويقول ص ٢٧ «بحيث يعد النفح في أكثر جوانبه نسخة ثانية مشوّشة لهذا النص».

يبدو أن الدكتور أسرف كثيراً، وأنسته نشوة الظفر بالمغرب، وتحقيقه له الاقتصاد في القول، والرّيث في الحكم.

حقاً إن المقري ينقل بكثرة عن المغرب؛ وحقاً إن لظهور المغرب تأثيراً على قيمة النفح الأدبية، ولكنّ في النفح — زيادة على ما استثناه الدكتور — نقولاً أخرى هامة عن كتب مفقودة، كمكتب ابن حيّان مثلا، كما أننا نجد فيه شيئا كثيراً من أخبار القرون الأخيرة أي من وقت إتمام علي بن موسى بن سعيد للمغرب، إلى انتهاء المؤلف من النفح الانتهاء الأخير، ولا سيما تصويره لعقلية العلماء في القرون الأخيرة، وإطلاعنا على

طريقة جدلهم وبحثهم ، بتلك المسائل العلمية التي يسوقها من حين لآخر ، وما يجده القارىء في استطرادات أبي العباس من معلومات عن المغرب ، وتعريفه برجال. أخبارهم في غير كبير غرض . وهل صحيح قول الدكتور أن المقري « حاول في أغلب الأحوال : أن يضلل القارىء » هذا ما أشك فيه كل الشك . كما أني أستغرب صدور هذا القول من رجل قد يعدّ من المختصين في الأدب الأندلسي ، فهو إذن قد قرأ النفح ، أو قل درسه دراسة الباحث المنقّب . ومن يقرأ النفح يجد فيه أن صاحبه ألفه وهو — نضو أسفار خال من الأسفار — على حدّ تعبير أمير البيان ؛ وهو أيضا في ضيق مادي ومعنوي مما أدى به ذلك إلى الانقطاع عن التأليف ، لولا إطماع صديق عزيز ، كما سيأتي . والمؤلف نفسه يعلمنا بعدم رضاه عن تأليفه (١) . ومن هنا نستطيع أن نؤكد أن المقري لم يدر بخلده أن يضلّل القارىء ، وانما هو الاضطراب ، وحيرة البال ، وازدحام المحفوظات ، والاعتماد على الذاكرة ، فمرة يتيقن ، فينسب ؛ ومرة يشك ، فلا يذكر المصدر ، أما أنه يريد تضليل القارىء ، فذلك ما أراه بعيداً عن نفسية أبي العباس . وإنما هي سرعة من الدكتور في الحكم ، أربأ بباحث صبور مثله عنها .

ج — ظروف تأليفه :

ترى لو بقي المقري في المغرب . هل يؤلف معلمته ؟ قد يكون ذلك

(١) راجع النفح ج ١ ص ١٠٩ — ١١٨

ولكن من يدري ؟ لعل في تخيّل سعيد العريان شيئا من الصحة ، إذ يقول « ليت شعري أيكون في المشرق بقية من السحر الفرعوني ، أو من السحر البابلي ، تنفخ في الأجساد الهامدة والمسبوتة روحا ونشاطا ، فترّدها من همودها وسباتها إلى الحياة والحركة . فإذا هي ساعية واعية ، ناشطة نشاط الأحياء (١) » قد تقول حتى الشرق إذاك في سبات عميق ، فظل الأتراك الثقيل ، فنيّأ العالم العربي كله . ومهما يكن الحدس قريبا أو بعيدا ، فإن الواقع ينبئنا بأن المشرق ألح على المقري بأن يجلو فضل المغرب .

أجل . ها هو ذا أبو العباس ، يتحدّث على ضفاف بردى مع جماعة من أدباء الشام ، فيفضي به الحديث « والحديث ذو شجون » كما يحلو له أن يكرر ذلك ، إلى ذكر شاعر الحمراء ، وصاحب القلم الأعلى في غرناطة ، الفاتنة ، اليتيمة ، المتناحر على حسنها . . . فإذا ينبوعه ينساب في غزارة وصفاء ، وإذا هو يسرد في ذلاقة « من كلام وزيرها لسان الدين بن الخطيب السلماني ، صب الله عليه شآبيب رحماه ، وبلغه من رضوانه الأماني . ما تثيره المناسبة وتقتضيه ، وتميل إليه الطباع السليمة وترتضيه ، من النظم الجزل ، في الجد والهزل ، والإنشاء ، الذي يدهش به ذكر الألباب إن شاء ، وتصرّفه في فنون البلاغة حالي الولاية والعزل ، إذ هو — أعني لسان الدين — فارس النظم والنثر في ذلك العصر ، وكيف لا ونظمه لم تستول على مثله أيدي التهصّر . ونثره تزري صورته « بالخريدة »

(١) من تقديم الأستاذ سعيد العريان لكتاب « وزير غرناطة » تأليف عبد الهادي ابي طالب المغربي.

و « دمية القصر » (١) فلما تكرر ذلك غير مرّة على أسماعهم ، لهجوا به دون غيره ، حتى صار كأنه كلمة إجماعهم . . . فطلب مني المولى أحمد الشاهيني إذاك ، وهو الماجد المذكور ، ذو السعي المشكور ، أن أتصدّى للتعريف بلسان الدين في مصنف ، يعرب عن بعض أحواله ، وأنبائه ، وبدائعه وصنائعه وروقائعه ، مع ملوك عصره وعلمائه وأحبائه ومفاخره التي قلّد بها جيد الزمان ولَبّته ، ومآثره التي أرج بها مسرى الشمال وهبّته ، وبعض ماله من الشعر والنظام ، والمؤلفات الكبار العظام (٢) » ولكن المقري ، يتذكر عدم الاستقرار الذي لا يسهل معه إنتاج ، ويتذكر أن المصادر التي يحتاج إليها تركها في المغرب « وأكثرها في المشرق كمنتاء مُغرب » ويشعر بالغربة ، ومفارقة الأهل والأحباب ؛ فيرفض طلب صديقه ، ولكن هذا ما زال يلح ، حتى أجابه أبو العباس لطلبه ، وفارق دمشق ؛ ليتجه إلى مصر ، ولو كانت في هذه مشاكل الأسرة ، ومرض النفوس ، وفي تلك حلقات العلم والأدب التي تذهب القلق الجاثم . ولو إلى حين ، ولكن المقري مضطر للذهاب إلى القاهرة

---

(١) هما كتابان . الاول عنوانه « خريدة القصر وجريدة العصر » لعماد الدين الاصفهاني المتوفى س ٥٩٧ هـ وقد ذيل به الكتاب الثاني المسمي « دمية القصر وعصرة أهل العصر » لابي الحسن الباخرزي المتوفى س ٤٦١ هـ وقد ذيل الباخرزي بدميته « يتيمة الدهر في شعراء أهل العصر » التي ذيل بها الثعالبي « البارع في شعراء المولدين » لهرون المنجم المتوفى س ٢٨٨ هـ وقد ذكرت هذا ، لاني أشعر أن كثيراً من القراء ، يجديهم ذكر المصادر .

(٢) نفح الطيب ج ١ ص ٧٧

لشاكل زوجية في نظري ، جعل لها حداً بالطلاق حين سنحت فرصة ، وهذا لا ينافي أنه يريد أن يؤلف في القاهرة : لأنه قد يجد فيها مصادر لا يجدها في دمشق (١) استجاب أبو العباس لطلب صديقه الشاهيني ، وبدأ يكتب في ذي القعدة سنة ١٠٣٧ هـ وإذا هو يؤخر العمل بعد حين ، ولكن خطابا من صديقه حدا به للإتمام ، فإذا بصاحب النفح يتم عمله على صورته الأولى عشية يوم الأحد المسفر صباحها عن السابع والعشرين لرمضان سنة ١٠٣٨ هـ ويخرج لنا كتابا سماه « عرف الطيب في التعريف بالوزير ابن الخطيب » ولكنه رأى بعد ذلك أن يوسّع نطاق الكتاب ، ويتحدّث عن الأندلس طويلا (٢) ، فإذا به يعود إلى الكتابة ، ويطلق لقلمه العنان ، وما هي إلا مدّة وجيزة ، تشرف فيها سنة ١٠٣٩ هـ (٣) على النهاية ، حتى يخرج لنا المقري موسوعة تاريخية وأدبية ، خلّدت ، وأخلّدت ، ولكن ما دام الكتاب اتسع ، فلا بد من تغيير العنوان السابق : ليصير هكذا :

---

(١) قال شكيب أرسلان في الحلل ج ١ ص ١٥٢ « وقد كان تأليف المقري للنفح حينما كان مقيماً بالشام » معتمداً على قول المقري « وله بالشام تعلق من وجوه عديدة الخ » انظر النفح ج ١ ص ١١٧ ولكن الأمر الذي لا ريب فيه أن المقري ألف كتابه بالقاهرة من أوله إلى آخره ، كما صرح هو بذلك في مقدمة الكتاب. وفي آخره . انظر النفح ج ١ ص ٨٦ – ج ١٠ ص ٣٦٤ .

(٢) انظر النفح ج ١ ص ١٠٨

(٣) قال شكيب أرسلان في الحلل ج ١ ص ١٥١ « بدأ (أي المقري) بكتابة هذا الكتاب (يعني النفح) سنة ١٠٢٩ هـ . . . إلا أنه بعد ما بدأ به بدا له أن يتوسع في الموضوع » هذه سهوة ثانية من الأستاذ رحمه الله .

« نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب »
« وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب »

وقسم المؤلف كتابه إلى قسمين :

الأول في الحديث عن الأندلس وتاريخها وآدابها . وفيه ثمانية أبواب :

١ ـ في وصف جزيرة الأندلس ، ومناخها ، وبلدانها .

٢ ـ في فتح العرب للأندلس .

٣ ـ في عز الإسلام بالأندلس .

٤ ـ في ذكر قرطبة ، وجامعها الأموي ، وقصورها البديعة الصنعة .

٥ ـ في التعريف ببعض من رحل من الأندلسيين إلى بلاد المشرق .

٦ ـ في ذكر بعض الوافدين على الأندلس من أهل المشرق .

٧ ـ في الحديث عما يمتاز به أهل الأندلس من توقد الأذهان ، والسعي وراء المعرفة .

٨ ـ تحدث فيه كيف تعاون الأوربيون لاغتصاب الفردوس ، وكيف تخاذل العرب ؛ ليزيلوا لهم العوائر .

والقسم الثاني في التعريف بابن الخطيب ، وفيه ثمانية أبواب :

١ ـ في ذكر أوليّة لسان الدين .

٢ ـ في نشأته وترقيه ووزارته ، وسعادته وشقائه .

٣ ـ في ذكر مشائخه .

٤ ـ في مخاطبات الملوك والأكابر له .

obeikandl.com

٥ ـ في إيراد جملة من نثره ، وأزجاله ، وموشحاته .

٦ ـ في مصنفاته .

٧ ـ في ذكر بعض تلامذته .

٨ ـ في ذكر أولاده .

وكم من طرائف تقف ، وقيمة شذور تحت هذه العناوين ، يذكرها المؤلف ، فيخطها يراعه ، ورغم تصنيفه لهذه الموسوعة النفيسة التي يشعر سميرُها أنه في روضة مختلفة الشذى ، ذات ألوان فيها من الحياة الانسجام والتناقض ، فإنه يقول « . . . وتركت الجميع بالمغرب ، ولم أستصحب معي منه ما يبين عن المقصود ويعرب ، إلاّ نزراً يسيراً علق بحفظي ، وحلّيت بجواهره جيد لفظي ، وبعض أوراق سعد في جواب السؤال بها حظي ، ولو حضرني الآن ما خلفته مما جمعت في ذلك الغرض وألفته ، لقرّتْ به عيونٌ ، وسرّتْ ألبابٌ ، إذ هو والله الغاية في هذا الباب . ولكن المرء ابن وقته وساعته (١) » .

ترى ماذا يمكن أن يكون هذا الكتاب . لو ألفه المقري وبجانبه المصادر التي يحتاج إليها ؟ يستطيع أن يقدر ذلك من عرف نفح الطيب الذي كانت مصادره حافظة إنسان .

٩ ـ مختصروه :

كان علماء عصر « الشروح والحواشي والمختصرات » رحمهم الله يرون

(١) النفح ج ١ ص ١٠٩

في الاختصار نفعا من جهة ؛ ودفعا لمشقة الإبداع من جهة أخرى . وما أغرب كلمة الإبداع في ذلك العصر ! فتراهم إذا وجدوا تطويلا قصروه ، حتى قال أحد الظرفاء ، وقد أبصر رجلاً طويلا ، لو رآه فلان — من العلماء — لاختصره ؛ وإذا وجدوا قصراً ، طولوه « تحشية » أو قل حشواً في الكثير ولا بأس عليك .

وإذا كنا نحتمل الاختصار على مضض في بعض الكتب ، فإننا نشعر بالتمدّي على المؤلف حين يُختصر كتاب ، مثل كتاب نفح الطيب ؛ لأن الاختصار لا يحقق غاية المؤلف ؛ ولا يعرف بثقافته ، وتفكيره ، ومزاجه ، وإذا كان في الاختصار جديد ، فإنما هو المسخ ، والتعقيد اللفظي ، وضياع مجهود فيما لا يُجدي . ترى ما ذا كانت نتيجة ستة عشر عاما قضاها أحد المعاصرين في تهذيب الأغاني سوى بذل مجهود استحق عليه اللوم . قد ترى في هذا قسوة على رجال خدموا الثقافة ، ولكن ثق أن سبب القسوة ، هو الإشفاق على هذه الثقافة من الحذف والتشويه . وها أنا ذا أعرفك بالذين اختصروا نفح الطيب ، وهم يظنون رحمهم الله أن مختصراتهم ، ستذيع في الناس ، وسوف لا تحتاج إلى تعريف .

اختصر نفح الطيب أبو الحجّاج يوسف بن محمد الشهير بابن الوكيل الميلوي في كتاب سمّاه « تغريد العندليب على غصن الأندلس الرطيب » رتبه على ثمانية أبواب وخاتمة عرف فيها بالمؤلف ، وأضاف إليه بعض الفوائد مما وقف عليه في بعض الكتب ، ولا سيما الذي يتعلق بالمغرب الأقصى ،

واختصره بطلب من أحد الأشراف بمصر، وهو حسين أفندي بن ابراهيم فرغ من تحريره في ذي الحجة سنة ١١٤٤ هـ ويقع هذا المختصر في مجلد ضخم توجد منه نسخة بمكتبة محمد الهادي المنوني الحسني بمكناس.

واختصره أيضا أبو الحسن علي بن أحمد الحُرَيْشي الفاسي المتوفّي بالمدينة المنوّرة سنة ١١٤٤ هـ وتوجد نسخة من هذا الاختصار بالخزانة الزيدانية بمكناس (١) واختصره كذلك أبو العباس أحمد بن محمد الرهوني التطواني في كتاب سماه « اللؤلؤ المصيب من نفح الطيب » طبع الجزء الأول منه بتطوان سنة ١٣٤٠ هـ ولم يتم طبعه.

واختصره الشيخ أحمد دحلان المتوفى سنة ١٣٠٤ هـ ولم أعثر على المختصر، أو مكانه، أو اسمه.

واختصره أيضا الشيخ أحمد الجزائري. وتوجد نسخة من هذا المختصر بالمتحف البريطاني (٢) لم أتمكن من معرفة رقمها. ولما أطلعني الشيخ المنقّب أحمد الجريدي على مكتبته القيمة، وجدت بها مجموعا مخطوطا، يحتوي على مختصر لنفح الطيب فيه ١٧٠ ورقة. وهو بخط مختصره السيد حمودة بن محمد النوري. وكان الفراغ منه أواخر رمضان سنة ١٢٧٠ هـ

---

(١) انظر فهرس الفهارس ج ١ ص ٢٥٤ ودليل مؤرخ المغرب الاقصى ص ٢٦٩.

(٢) راجع تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان ج ٣ ص ٢٧٢

هـ ـ طبعاته [١] :

طبع نفح الطيب طبعات عديدة ، متفاوتة في جودة الطبع ، وتحقيق النص ، ولكنه إلى الآن لم يطبع طبعة جيدة ، تقوم على المقارنة بين النسخ المخطوطة ، مع التعاليق التي يحتاجها الكتاب ، لا سيما التعاليق التاريخية : وما يحتاجه الكتاب من الإحالات الكثيرة التي تعين المطالع على تنسيق الشتات ، وأهم طبعات النفح الطبعة الأوربية .

في سنة ١٨٤٥ م سافر العلامة دوزي (١٨٢٠ ـ ١٨٨٣ م) مع عروسه الهولاندية إلى ألمانيا ، لقضاء شهر العسل ، وياله من شهر عسل ذلك الذي قضاه في مكتبات ألمانيا ؛ ليعلق على كتاب المقري ـ نفح الطيب [٢] ـ الذي اشترك هو والأساتذة « كرهل » و « ديجا » (١٨٢٤ ـ ١٨٩٤ م) و « وليم رايت » (١٨٣٠ ـ ١٨٩٩ م) في نشر القسم الأول منه بليدن بين سنتي ١٨٥٥ ـ ١٨٦١ م بعنوان « متن المقري عن تاريخ وأدب الأندلس العربي » وقد تقدم لهذه الطبعة التي خرجت في جزأين الأستاذ ديجا بمقدمة ترجم فيها للمقري ، وتمتاز هذه الطبعة بفهرس الرجال ، والكتب ، والتعاليق المفيدة ، وضبط بعض الأعلام والكلمات .

وفي سنة ١٢٧٩ هـ طبع في أربعة أجزاء بمطبعة بولاق في مصر ، وقد

---

(١) يقول الأستاذ الشرايبي (من فاس) إن طبعات نفح الطيب ناقصة عن أصوله المخطوطة .

(٢) انظر « المستشرقون » لنجيب العقيقي ط دار المعارف بمصر س ١٩٤٧

صحح هذه الطبعة الشيخ محمد بن عبد الرحمن المشهور بقطة العدوي، وهذه الطبعة تكاد تكون خالية من التعاليق مع التصحيف، ولا سيما في الأسماء.

وفي سنة ١٣٠٢ هـ طبع في مصر بالمطبعة الأزهرية، وبهامش الأجزاء الثلاثة من هذه الطبعة «مروج الذهب» للمسعودي، وبهامش الجزء الرابع والأخير «تحفة الأحباب، وبغية الطلاب، في الخطط والمزارات، والتراجم والبقاع المباركات» للسخاوي.

وفي سنة ١٩٣٦ م خرج الجزء الأول في سلسلة «مطبوعات دار المأمون» ولكن هذه الطبعة لم يصدر منها إلا تسعة أجزاء فيها أقل من ربع الكتاب بصفحات قليلة، وتمتاز هذه الطبعة زيادة على الضبط بالتعاليق المفيدة التي كتبها الأستاذ أحمد يوسف نجاتي.

وفي سنة ١٩٤٩ م طبع الفتح بمطبعة السعادة في مصر بتحقيق الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد في عشرة أجزاء، وهذه الطبعة دون طبعة دار المأمون؛ لأن ما فيها من تعاليق قليلة، هي تعاليق لغوية؛ أو إشارات إلى اختلاف النسخ.

و ـ ترجمته:

فيما بين سنتي (١٨٤٠ ـ ١٨٤٣ م) خرجت في لندن ترجمة إنكليزية ملخصة للقسم الأول من نفح الطيب بعنوان «تاريخ الدول الإسلامية في إسبانيا» وقد قام بهذا العمل الجليل المستشرق الإسباني كاينكوس (١٨٠٩ ـ ١٨٩٨ م)

أزهار الرياض في أخبار عياض

جعل المقري في كتابه هذا القاضي عياض مركزاً لدائرة معارف مغربية ، تحدث فيها عن الحركة العلمية والأدبية بالمغرب ، وترجم لكثير من العلماء ، ولا سيما الفقهاء منهم ، ومما يتخلل استطراداته من شذور وفوائد ، وهو يشير بفاتحة تأليفه ؛ لما تضمنه زيادة على ترجمة القاضي المستفيضة ، من أخبار ونقول وتفاصيل ذات قيمة ، فيقول « . . . لم أسبق إلى مثلها فيما رأيت ، وإن بعدتُ فيها عن المهيع المطروق ونأيتُ . والإنسان مغرم بتنبيّات أفكاره ، وإن قوبل ما صدر منه بإنكاره (١) » وقد ألف المقري كتابه هذا حين كان بفاس بين سنتي ١٠١٣هـ ـ ١٠٢٧هـ (٢) استجابة لأهل بلده التلمسان الذين رغبوا منه أن يؤلف في عالم المغرب ، ومحدثه ، وقاضيه الشهير . . فهو يخبرنا بهذا الطلب ، وتردده أول الأمر في المقدمة ، فيقول « . . . . وفي هذا التاريخ الغريب ، وردت كتب من تلك

(١) ازهار الرياض ج ١ ص ١٧

(٢) لم نظفر بتعيين للزمن الذي أتم فيه المقري كتابه هذا ، ولكن نرجح أن يكون انتهاؤه منه في آخر يامه بفاس ، لقول محمد بن يوسف التاملي « وابعثو لنا بعض موسوعاتكم كازهار الرياض في اخبار عياض ان اتممتموها » من رسالة بعث بها إلى أبي العباس مؤرخة بذي القعدة من ١٠٢٦ هـ وفي رسالة أخرى بعث بها اليه ، وهو في المشرق مؤرخة ببداية من ١٠٣٨ هـ يشير إلى انتشار أزهار الرياض في المغرب ـ نفح الطيب ج ٣ ص ٢٣٣ ـ وذلك يدل على انه لم ينتشر ، وهو بالمغرب ، لانه أتم تاليفه قبل رحيله بمدة قليلة .

الناحية ، حركت شجو الغريب . . . . وكان من جملة فصولها ، وفروع أصولها ، طلب التعريف والإلمام ، ببعض أحوال الشيخ . . . سيدي أبي الفضل عياض بن موسى . . . وحين ورد عليّ هذا الخطاب الذي تقدّم ، وألفى ركن الاصطبار كاد يتهدّم أو تهدّم ، أضربت عن جوابه حينا من الدهر . . . ثم وقع العزم والتصميم على جواب هذا السائل ، وسمّى كتابه « أزهار الرياض في أخبار عياض ، وما يناسبها مما يحصل به ارتياح وارتياض » وقسّمه إلى روضات ثمانية :

١ ـ روضة الورد في أوليّة هذا العالم الفرد .

٢ ـ روضة الأقحوان في ذكر حاله في المنشأ والمنفوان .

٣ ـ روضة البهار في ذكر جملة من شيوخه الذين فضلهم أوضح من شمس النهار .

٤ ـ روضة المنثور في بعض ماله من منظوم ومنثور .

٥ ـ روضة النسرين في تصانيفه العديمة النظير والقرين .

٦ ـ روضة الآس في وفاته ، وما قابله به الدهر الذي ليس لجرحه من آس .

٧ ـ روضة الشقيق في جمل من فوائده ، ولمع من فرائده المنظومة نظم الدرو العقيق .

٨ ـ روضة النيلوفر في ثناء الناس عليه ، وذكر بعض مناقبه التي هي أعطر من المسك الأذفر .

وأريد أن أشير هنا إلى أن المقري ، أعاد كثيراً من أخبار أزهار الرياض ،

في نَفح الطيب ، وذلك لأن أبا العباس ، كما قلت سابقا لا يستطيع أن يترك شيئا يعرفه في المسألة التي يكتب فيها ، ولو كان ذكره في تأليف متقدم ؛ ولأن المكان الذي ظهر فيه النفح ، غير المكان الذي انتشر فيه أزهار الرياض انتشاراً عظيماً ، وإذا كان نفح الطيب ، لم يزل مرجعا عظيما في حياة الأندلسيين ، فإن أزهار الرياض ، لا يقل عليه قيمة في أخبار المغرب ، وحتى الأندلس .

وألف ابن أخيه في القرن الثاني عشر كتاباً موضوعه ، هو موضوع « أزهار الرياض » الذي ألفه عمه أحمد . ومن هنا غلط كاينكوس ، فنسب كتاب ابن الأخ المجهول للعم المشهور (٢) ولكن الأمر الذي أشكل ، ما دمتُ لم أطلع على كتاب ابن الأخ ، هو أن كتاب هذا الأخير الذي نسبه كاينكوس للعم غلطا ، سُمّي « أزهار الكيامة ، أو أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض » ونحن نعرف أن أزهار الكيامة منسوب للعم ، واتحاد الاسم يبقي الإشكال إن لم يزد فيه .

تذييل :

كتب أبو عبد الله محمد بن عبد الله القنطري القصري ذيْلًا على الأزهار ، جمع فيه ما قاله بعض المؤرخين في القاضي عياض ، وغفل عنه

---

(١) راجع « تراجم عالمية . . . » لجماعة من الفرنسيين ج ٢٦ ص ١٩٢

صاحب الأزهار ، ولم يقف عليه ، يقع في نحو ثلاث كراريس توجد منه نسخة ضمن مجموع رقم ٢٩ بالخزانة العامة بتطوان .

طبعه :

طبع الجزء الأول من أزهار الرياض في المطبعة الرسمية العربية بتونس سنة ١٣٢٢ هـ وقامت بطبعه إذاك « الشركة التونسية لطبع الكتب العربية » التي لم تعمر طويلاً ، كأكثر المشروعات التونسية رزقنا الله الصبر ، والدأب ، والإخلاص . . . وهذه الطبعة محرفة تحريفا مخجلا ، وخالية من التعاليق ، وليس فيها مقدمة ، تعطينا فكرة عن المخطوطات المعتمدة ، وعن كيفية التحقيق .

وفي سنة ١٩٣٩ م بُدئ بإخراجه كاملاً بعناية بيت المغرب بالقاهرة ، وقد وصلتنا من هذه الطبعة التي تمتاز بالتعاليق القيمة ، والفهارس المرشدة ، ثلاثة أجزاء ، انتهت بانتهاء الروضة الثالثة .

فتح المتعال في مدح النعال

ها هو ذا أبو العباس ، يجمعه ناد بالقاهرة مع بعض الأعلام ، فيتحدثون ويتحدث ، وما أسرع أن يصل بهم الحديث إلى الكلام عن « النعل النبوية المعظمة ، ومثالها الكريم ، وما قيل فيه من الأمداح النثيرة والنظيمة » فتنشرح نفس المقري ، فإذا هو ينشد القصائد الطوال في النعل ،

فيثير في بعض الحاضرين مرض النفوس الضعيفة ـ الحسد (١) ـ ويعجب به الآخرون ، فيطلب منه أحدهم أن يكتب في الموضوع ؛ ويلح في ذلك ، فيستجيب المقري للطلب . وما أيسر التأليف عليه ! ولو أقف بك عند هذا الكلام ، فستظن أنني أعتقد أن فكرة التأليف في هذا الموضوع عند أبي العباس ، إنما هي وليدة ذلك النادي . وهذا ما لا أرتاح إليه ، بل أشعر شعوراً قويّاً أن المقري ، راودته فكرة التأليف في هذا الموضوع قبل أن تطأ قدمه المشرق ، وإنما تأخر عن الكتابة فيه لأمور لا يستبعد أن تكون أقواها رغبته في أن يكون ذلك بعد زيارة صاحب النعل ، وأن تكون الكتابة في المشرق حيث المثال الكريم ؛ ولتسنح الفرصة بكتابة شيء في المقام النبوي . وقد اشتغل به تحت سقفه كما تقدّم ، وكأني بك ترتقب شيئا ، يشبه الدليل ، إن لم يكنه .

اعلم إذن أن المقري التمس مناسبة في أزهار الرياض ؛ ليتحفنا بمعلومات عن النعل النبوية ؛ وليتقل لنا أشعارا في مدحها ووصفها ؛ وليقول « قلت : وقد اعتنى الناس والأئمة بتمثال النعل الكريمة ، وكيف لا ، وحُقّ على كل مؤمن أن يفلي لمشاهدتها الفلا ، فإذا شاهدها قبّلها ألفا وألفا ؛ وتوسل بصاحبها إلى الله الكريم زلفى ، ولثم ثراها لثما ، وأزاح به عن نفسه حوبا وإثما ، وجعلها فوق رأسه تاجا ، وقد أفردها أبو اليُمْن ابن عساكر بالتأليف ، وصنف فيها جزءا مفردا ، وكذلك أفردها بالتأليف أبو اسحق ابراهيم بن

(١) انظر ص ٣ من مخطوطة الصادقية .

محمد بن خلف السُّلمي الشهير بابن الحاج من أهل المرية ، وكذا غيرهما (١) » ويتحدث في نادي القاهرة المشار إليه ، فيقول « إني قد كنت أذكر من محاسن المثال الوافية ، أكثر من مائة قافية مما جمعته بالمغرب » فأنت ترى أنه قد اعتنى بالموضوع عناية عظيمة ، وعرف الكتب التي أُلفت فيه ، وجمع القصائد جمعا ، يقرب أن يكون للتأليف ، لا لمجرد « الثواب » تستطيع أن تقول : اعتنى ذلك الاعتناء ، لشعور ديني مسيطر ، وذلك قليل عند من يرى فلي الفلاة ، ولكن هذا الشعور الديني نفسه ، هو الذي يجعلني أميل إلى أن أبا العباس ، فكر في التأليف ، وهو بالمغرب ، فحرصه على أن يكون له فضل الكتابة في الموضوع ، أو ثواب الكلام فيه ، هو الذي جعله يلتمس لذلك مناسبة في أزهار الرياض ، ولكن كلام مناسبة لا يكفي المقري ، سيما ، وهو حريص على أن يكون ممن شملهم فضل كتاب في النعل : فهو بعد ما يقص علينا حكايات غريبة في الباب الرابع من فتح المتعال ، يأبى إلاّ أن يكون بطل حكاية منها ، فيقول « قلت : وقد رأيت له هذه الأيام بالقاهرة المعزية بركة عجيبة ، وذلك إني جعلت هذا الموضوع الذي تشرف بالنعل والمثال في خزانة مع بعض كتب ، ففتحتها لآخذ شيئا من الكتب ، فاذا بعقرب ميتة فوق الأوراق يابسة ، كأنها مضت لها مدة مديدة ، وما أرى ذلك إلاّ من بركة المثال الشريف »(٢)

هذه النقول التي يُستنتج منها شيء ، يؤيّد رأينا ، وهذا التصوّر

(١) انظر أزهار الرياض ج ٣ ص ٢٦١

(٢) انظر ورقة ٩٤ من فتح المتعال مخطوط بالصادقية رقم ٩٧٥

لشخصية المقري ، ونظرة أهل عصره لمثل هذه الموضوعات ، يجعلنا كل ذلك نثبت على الشعور . وعند الله حديث النفوس .

وفتح المتعال هذا رتّبه المؤلف على فاتحة ، وأربعة أبواب ، وخاتمة .

أما الفاتحة : ففي معنى النعل والقِبال والشِّراك والشِّسْع في اللغة . وما يناسب ذلك من شوارد مقتنصة .

وأما الباب الأول ، فذكر فيه بعض ما ورد في النعال الشريفة من الأحاديث النبويّة وتفسيرها .

والثاني تعرض فيه لصفة المثال ، وبعض أقوال العلماء فيه .

والثالث ذكر فيه مقطّعات ، وقصائد في مدح المثال ، ورتبها على حروف المعجم .

والباب الرابع في سرد جملة من خواص المثال ومنافعه .

والخاتمة ذكر فيها قصيدة رجزية له في النعل . سيأتي الحديث عليها ، ومسائل أخرى . وهذا الكتاب يمثل في الحقيقة المرحلة الثانية من تأليف أبي العبّاس في الموضوع ؛ لأنه ألف قبل فتح المتعال كتابا أسماه « النفحات العنبريّه في نعال خير البريّة » ثم أراد أن يزيد في الموضوع ، ويضيف شيئا جديدا . ولما فعل ذلك غيّر العنوان ، فصار « فتح المتعال في مدح النعال » وقد غلط صاحب سلافة العصر ، فقال : إنه اختصر فتح المتعال في كتاب سماه النفحات العنبرية . . . (١)

---

(١) انظر السلافة ص ٥٩١

وتـوجد من التأليف الأول « النفحـات العنبريـة » نسخة بالخزانة الظاهرية . أو المكتبة العمومية بدمشق رقم ٥١ قسم السيرة النبوية (١) وتوجد أيضا نسخة بالمكتبة الأزهرية رقم ٣٩٣٢ قسم التاريخ في ٥٦ ورقة بقلم معتاد بخط سويلي بن أحمد الجبل نُسخت سنة ١٣٢٣ هـ.

وتوجد نسخة في مكتبة تطوان رقم ٦٢ .

أما فتح المتعـال فقد اطّلعتُ على عـدّة نسخ منه ، سأتحدث عنها حسب تاريخ نسخها :

أ ـ اطلعت على نسخة جيـلة الخط بمكتبة الشيخ الأزهري محمـد الطاهر ابن عاشور ـ رقم ١٩٤ قسم دلائل النبوة والسّير ـ جاء في آخرها ما يلي « وكان الفراغ من تحريره ضحوة يوم الثلاثاء لثلاث وعشرين مضت من جمادى الآخرة من عـام ١٠٣٤ هـ بتونس المحروسة بالله على يـد العبد الفقير . . . محمد الجزنائي المغربي المالكي ، الفاسي الـدار . . . كتبه من نسخة بخط مؤلفه الشيخ الفقيه العـالم العلم ، الصدر المحقق المـدرس مفتي المسلمين أحمد بن محمد المقري التلمساني حفظه الله .

ب ـ ووقفت على نسخة بخـزينة جـامع الزيتونة رقم ١٨٢٣ خطهـا مغربي واضح ، وهي بخط أحمد بن علي بن أحمد الشريف البجـائي المولد ، الفاسي الأصل ، وكان الفراغ من نسخها ضحوة يوم السبت ثاني ذي الحجة سنة ١٠٦٠ هـ .

---

(١) انظر « خزائن الكتب في دمشق وضواحيها » لحبيب الـزيـنات ص ٧٤ مطبعة المعارف مصر س ١٩٠٢ م

ج – ووقفت على نسخة بخزينة جامع الزيتونة رقم ١٨٢٢ جاء في آخرها ما يلي « ثم حررت هذه النسخة ، بالمدينة المنورة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام بين القبر الشريف والمنبر ، بالروضة السامية ، تجاه الرأس الشريف لصق شباك الحجرة المعظمة النبوية ، في الناحية التي تليها سارية التوبة ، في الصف الذي فوق باب الحجرة النبوية المعروف بباب الوفود ، وكان ابتداء ذلك يوم الثلاثاء غرة رمضان من عام ثلاثين وثلاثة أعوام وألف ، وانتهاؤه يوم الثلاثاء الخامس عشر من الشهر المذكور ، وكنت أكتب كل يوم من وقت الضحى إلى الظهر ، فكملت ولله الحمد والمنة على هذه الصفة في نصف شهر ، وقد نظمت بعض ما ألحقته بهذا المحل الأسنى » وهي بخط معتاد فرغ من نسخها السيد عبد الفتاح المصري يوم الإثنين عشرة جمادى الثانية سنة ١٠٦٨ هـ .

د – ووقفت على نسخة بالصادقية رقم ٩٧٥ بخط عبد الفتاح المصري ناسخ المخطوطة المتقدّمة . ونسخة الصادقية خالية من تاريخ النسخ ، وتمتاز هذه المخطوطة ، والتي قبلها عن بقية المخطوطات التي اطلعت عليها بالرسائل التي قيلت في تقريض الكتاب وهي :

١ – رسالة من ([1]) بن عبد الرحمن بن عبد الوارث الصديقي المالكي
٢ – رسالة من عبد الكريم الغنيمي القاضي بالقاهرة إذاك .
٣ – رسالة من الشيخ « تاج الدين بن أحمد بن إبراهيم المالكي المكي ،

(١) بياض بالاصل .

خادم العلم الشريف بالمسجد الحرام المنيف . والخطيب بذلك المنبر والمقام» .

٤ ـ رسالة في آخرها « الفقير أبو الإسعاد . . . . »

هـ ـ واطلعت على نسخة جميلة الخط بمكتبة المؤرخ الباحث الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب جاء في آخرها ما يلي « وكان الفراغ من تحريره بشوال من عام ثلاثين وألف إلاّ مواضع حررت ، وألحقت بعد ذلك وكله بالقاهرة المحروسة ، قاله مؤلفه العبد الفقير أحمد بن محمد المقري المغربي وفرغ من نسخ هذه المخطوطة السيد مصطفى بن إبرهيم الإزميري سنة ١١١٠ هـ .

و ـ ووقفت على نسخة بخزينة جامع الزيتونة رقم ١٨٢١ حبسها المشير أحمد باشا باي سنة ١٢٤٤ هـ وهذه النسخة جميلة الخط مذهبة الطالع ، تحتوي على ١٥٧ ورقة في الصفحة ٢٥ سطرا معدل السطر ١٠ كلمات . وهذه المخطوطة نسخها الشيخ إبراهيم بن عبد القادر الرياحي ليوسف خوجة صاحب الطابع فرغ من نسخها « يوم الثلاثاء قرب الزوال أوائل صفر الخير عام ١٢١٧ هـ »

وتوجد نسخة في المكتبة الخديوية رقم ٥٦ قسم الحديث فيها ١١٩ ورقة ، ونسخة ثانية رقم ٥٢٦ قسم الحديث فيها ٩٥ ورقة (١) وتوجد نسخة في باني جامع باستامبول ، ونسخة بليبسك رقم ٤١ ونسخة بقوالة رقم ١٤١

والمقري بعد ما نثر في موضوع النعل ، نظم أيضا قصيدة رجزية فيه ، ذكرها في تأليفه الصغير « النفحات العنبرية . . . » ثم غير شيئا منها . وذكرها

(١) راجع فهرس الخديوية ج ١ ص ٣٨٠ ط مصر س ١٣١٠ هـ

مرة ثانية في آخر فتح المتعال وقال : إن هذا النظم يصلح أن يكون تأليفا مستقلا ، وعزم على شرحه ، ولم نتيقن هل شرحه قبل موته ، أم توفي دون تحقيق العزم ؟ ولكن بروكلمان يذكر تأليفا مستقلا للمقري منه نسخة مخطوطة في غوطة رقم ٦٣١ بعنوان « نفحات العنبر في وصف نعل ذي العلى والمنبر » وهو العنوان الذي اختاره المقري لمنظومته . ويبدو من هذا أن المقري نفذ ما عزم عليه ، وشرح قصيدته .

وأنت لو ذهبت تلتمس في هذا الكتاب ما اعتاد به المقري في تآليفه من الاستطراد ، لوجدت ميزته تلك واضحة جليّة . خرمة الموضوع ، وحنينه إليه ، لم يباعدا بينه وبين مفارقته حينا ؛ ليحدثنا عن رسائل وردت إليه من المغرب ، وعن أصحابها . وكم في استطراده هذا من فوائد تُسرّ الدارسين لذلك العصر خاصة .

إتحاف المغرم المغرى بتكميل شرح الصغرى

هذه حاشية في علم الكلام ، كتبها المقري ، وهو بفاس في عشرة أيام كما أعلمنا بذلك . وكان الفراغ من تحريرها يوم الأربعاء ٢٦ من محرم سنة ١٠٢١ هـ وفي سنة ١٠٢٨ هـ أضاف ما أغفل ذكره في التحرير الأول ، وكان ذلك بثغر الإسكندرية . وعمل أبي العباس في هذا التأليف لا يتجاوز التنسيق بين كلام مقيد مع الطابع الشخصي الضعيف جدا. فاستمع إليه يقول « هذه نبذة جمعتها أيام القراءة بفاس على شرح الصغرى للإمام السنوسي من

بطائق كانت عندي نتفا ، خشيت عليها يد الضياع ، وبعضها بخط أشياخنا الذين لصيتهم في الخافقين شياع ، فلا اعتراض علي إن قدمت شيئا من شرح المصنف ، وأخرته : لأن هذه مسودة سيقع إن شاء الله في الأجل كتبها على ما ينبغي ؛ لأني كتبتها بهذه الصفة على عجل . وسأضيف إلى ذلك إن شاء الله تعالى ما قيدته من مثل ذلك عن عمنا ومفيدنا . . . الشيخ سيدنا سعيد المقري (١) » وغلط الذين كتبوا عن المقري (٢) ، فظنوا أن له كتابين في التوحيد أحدهما إتحاف ، أو إفادة الملزم (٣) المغرى بتكميل شرح الصغرى ، والثاني حاشية على أم البراهين ! ! والحقيقة أن المقري له حاشية على شرح الصغرى (وهي أم البراهين) سماها « إتحاف الملزم . . . » ثم أضاف إليها شيئا مستقلا . وانفرد صاحب أسماء المؤلفين فيما اطلعت عليه من المصادر بذكر كتاب للمقري عنوانه « إتحاف المغرى في تكميل شرح الكبرى » ويبدو أن هذا غير صحيح ، وأنبه أن إسماعيل باشا وقع في غير هذه السهوة في حديثه عن صاحب النفح . وما أكثر غلطاته ! ونحن إذا رجعنا إلى أبي العباس نفسه فإننا نجده لا يشير في حاشيته على الصغرى التي وقفت عليها إلى تكميل شرح الكبرى إلا أن يكون ألف هذه الحاشية بعد ذلك . وهذا ليس قريبا : لأنه فرغ من

(١) انظر مقدمة الحاشية ضمن مجموع مخطوط بخزينة جامع الزيتونة رقم ٢١٠٣

(٢) راجع خلاصة الأثر ج ١ ص ٣٠٢ ـ شجرة النور الزكية ج ١ ص ٣٠٠ ـ تعريف الخلف ص ٤٤ ـ اليواقيت الثمينة ـ اسماء المؤلفين ج ١ ص ١٥٧

(٣) كلمة الملزم غير موجودة في غالب المصادر التي ذكرت الكتاب ، وهي من عنوان الحاشية .

منظومته « إضاءة الدُّجُنّة في عقائد أهل السنّة » في آخر أيامه ، ولم يشر إلى تكميل شرح الكبرى فيها .

وقفت على نسخة من « إتحاف المغرم المفرى . . . » ضمن مجموع رقم ٢١٠٣ بخزينة جامع الزيتونة ، فرغ من نسخها السيد علي بن عمر الفلوسي لأحمد بن عبد الله السوسي (١) يوم السبت ٢٦ صفر سنة ١١٧٢ هـ وتوجد أيضا نسخة بالمكتبة العمومية التونسية (المطارين) رقم ٤٨٠

الجمان في أخبار الزمان

هذا كتاب في التاريخ يُعدّ من مؤلفات صاحب النفح ، تنسبه إليه كثير من المصادر كاليواقيت الثمينة التي يقول مؤلفها إنه وقف عليه ، وعدّه من تآليفه أيضا إسماعيل باشا البغدادي ، وحين درس المستشرق الفرنسي دي ساسي (١٧٥٠ ـ ١٨٣٨ م) بعض المخطوطات كان من بينها الجمان الذي نسبه هو أيضا إلى أحمد المقري (٢) ونجد أيضا كثيراً من نسخ هذا الكتاب المخطوطة في أولها تأليف أبي العباس أحمد المقري . . .

وبعد الدرس والبحث تبيّن لي أن الكتاب ليس من تأليف المقري ، ولا خطّه قلمُه ، وإنما للمقري به صلة ضلت كثيراً من الناس . وهذه الصلة تتردد بين أمرين . إما أن يكون أبو العباس نسخ الكتاب ، فظنه

(١) وقفت على خط هذا الرجل بطرة فتح المتعال نسخة الصادقية ص ١٠٠ ويبدو أنه كان من المتسببن للمعرفة .

(٢) راجع معجم المطبوعات لسركيس ص ٩٠٣

بعض الناس الذين لا يفقهون أنه من تأليفه ؛ لأننا نجد عبارة النسخ في أول الكتاب « قلت كنت أزهد في هذا ، ولا أنظر فيه البتة فما كان إلاّ أن رأيت الشيخ رحمه الله في نومي فأعطاني في النوم ، فما أصبح الصبح إلاّ وأنا من بركاته أخذت في نسخه » (١) وإما أن يكون أبو العباس اختصر الكتاب ، فنُسب إليه ؛ لأننا نجد في أول بعض النسخ المخطوطة « هذا مختصر من كتاب أخبار الزمان » ثم يقول قال المؤلف .

والمؤلف الحقيقي لهذا الكتاب هو محمد بن علي الصتلّي الأندلسي البرجي الشهير بالحاج الشطيبي المتوفى سنة ٩٦٣ هـ.

والذي جعلني أشك كل الشك في أن يكون هذا الكتاب من تأليف المقري أدلة متعددة :

١ ـ أسلوب الكتابة . فالأسلوب الذي عوّدنا به المقري في تآليفه لا نجد له أثرا في هذا الكتاب ، ولا يتصل الأسلوب الذي كُتب به بأبي العباس اتصالا قريبا أو بعيدا ، وكذلك ما امتاز به المقري من الاستطراد ، وقوّة البيان ، فإنه معدوم .

٢ ـ علماء المغرب الأقصى لا يشكون في نسبة الكتاب للحاج الشطيبي ، ولا يشيرون لصلة بينه وبين المقري (٢)

---

(١) راجع أول الكتاب مخطوط بخزينة جامع الزيتونة رقم ٦٥٦٠

(٢) راجع دليل مؤرخ المغرب الاقصى ص ١٨٤ ـ إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس ج ١ ص ٦٦ ط الرباط س ١٩٢٩ ـ الاستقصاء ج ١ وجاء منسوبا أيضا للشطيبي في كتاب « نفس السلاطين المماليك » ج ٢ ص ١١٦

٣ ـ المصادر القديمة التي تحدثت عن أبي العباس ، لم تشر لهذا الكتاب كخلاصة الأثر وغيرها .

٤ ـ نجد في الورقة الأولى من نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ١٥٩٩ نسبة الكتاب للحاج الشطيبي ، ونسبته للمقري مما . وهذا يدل على أن الشك قديم . ونجد أيضا نسخة ثانية في دار الكتب المصرية فرغ من نسخها سنة ١٠٠٩ هـ وتاريخ هذا النسخ يضاعف شكنا المتقدم .

والكتاب عديم الجدوى ليس فيه فائدة البتة ، وإن دل على شيء ، فإنما يدل على غفلة مؤلفه ، وضعف تفكيره رحمه الله . وقد تصفني بالمبالغة ، أو بالتحامل . ولكن اقرأ الكتاب ، فستجدني قصرت في وصف المؤلف ، وفي إظهار قيمة الكتاب إن ثبت أن له قيمة .

وتوجد نسخة من هذا الكتاب بخزينة جامع الزيتونة رقم ٦٥٦٠ ونسخة ثانية غير كاملة ضمن مجموع رقم ٤٩٣٥ وفي المكتبة الصادقية نسخة جميلة الخط رقم ٣٥٣٥ فرغ من نسخها يوم الأحد ٣ ربيع الثاني سنة ١١٩٦ هـ ووقفت على نسخة بالمكتبة الوهابية جزى الله صاحبها خيراً . وكان الفراغ من نسخها يوم الخميس ٢٦ ذي الحجة سنة ١١٩٠ هـ وتوجد نسخة بمكتبة جامع القرويين رقم ٢٧٥٤ وفي دار الكتب المصرية عدة نسخ من هذا الكتاب . نسخة رقم ١٤١٦ فرغ من نسخها علي الغرياني في ٢ محرم سنة ١٢٥٣ هـ ونسخة رقم ١٤٤٧ فرغ من نسخها محمد الديب في شهر محرم سنة

١٢٦٥ هـ ونسخة بقلم مغربي رقم ١٥٩٩ ونسخة أخرى رقم ١٥ [١] وفي مجموع مخطوط بمكتبة الشيخ أحمد الجريدي اختصار لكتاب الجمان الذي نسبه المختصر للمقري . وهو حموده بن محمد النوري .

بقيمة كتبه

إضاءة الدجنة في عقائد أهل السنة :

هذا نظم للمقري في علم الكلام ذكر فيه مسائل التوحيد بإيجاز جاء في آخره قوله :

وكان إتمامي لها بالقاهره * وفيه تاريخ حلاه الظاهره

أي أنه أتمه سنة ١٠٤٢ هـ [٢] . توجد نسخة مخطوطة من هذا النظم بالصادقية ضمن مجموع رقم ٢٨٠٣ ونسخة بخزينة جامع الزيتونة .

ونسخة بالمكتبة العمومية (العطارين) رقم ٢٨٢ شرح هذا المنظومة الشيخ محمد بن عمر الغدامسي شرحا وافيا مفصّلا. توجد نسخة مخطوطة من هذا الشرح بخزينة جامع الزيتونة رقم ٢٠٤٧ فرغ من نسخها السيد عبد السلام بن علي في ربيع الثاني سنة ١١٦١ هـ وشرحها أيضا الشيخ محمد عليش

(١) راجع فهرس دار الكتب المصرية ج ٥ ص ١٥١ ط القاهرة س ١٩٣٠

(٢) يدل هذا على أن المقري توفي بعد س ١٠٤١ هـ وهذا خلاف ما رجحناه وخلاف تاريخ الوفاة الذي جاء في بيت الاكرمي :

قد ختم الفضل به * فأرخوه « خاتم »

وأنبه هنا أنني وقفت أخيرا على شك آخر في سنة وفاة أبي العباس هل توفي س ١٠٤٦ هـ ١٠٤٧ هـ ـ ١٠٤٠ هـ انظر مقدمة شرح الغدامسي على منظومة « إضاءة الدجنة .. »

(١٢١٧ هـ ـ ١٢٩٩ هـ) سنة ١٢٩٥ هـ وهو شرح ليست له قيمة كبيرة طبع هذا الشرح بالقاهرة سنة ١٣٠٦ هـ بهامش « هداية المريد لعقيدة أهل التوحيد »

حسن الثنا في العفو عمن جنى :

هذا كتاب صغير جمع فيه أبو العباس بعض الآيات والأحاديث والآثار الواردة في طلب العفو عن المذنب . طبع طبعة حجرية بمصر في ٤٧ صفحة بدون تاريخ .

مزدوجة :

هذه قصيدة فيها طرافة وظرف ، وفحش دل على انطلاق غرائز مكبوتة . وسأذكر شيئا منها في النماذج . طبعت المزدوجة طبعة حجرية بمصر سنة ١٢٧٤ هـ ـ ١٢٧٨ هـ ـ ١٢٩٠ هـ ضمن مجموع اختاره، وأشرف على طبعه محمود أفندي الجزائري.

روضة الآس ، العاطرة الأنفاس ،

في ذكر من لقيته من أعلام مراكش وفاس :

هذا من مؤلفات المقري الثابتة ، وهو لم يشتهر . ولا نعرف هل توجد منه نسخة الآن أم لا . وذكر الشيخ عبد الحي الكتاني أنه وجد اسمه في برنامج المكتبة السلطانية بفاس ، ولكنه لم يقف عليه ، وأثبت أبو علي المعداني التادلي في كتابه الروض اليانع في مناقب أبي عبد الله صالح

الشرقاوي البجعدي مكتوبا من أبي عبد الله محمد بن حمزة العياشي يقول فيه « وقد وقع بيدنا طرف من كتاب المقري سماه « الروضة العاطرة الأنفاس فيمن لقيته بمراكش وفاس » فيها ترجمة الفشتالي والزياتي وأضرابهم من علماء حضرة الدولة الذهبية ، وجلب مقطّعات من أشعارهم ، وهي مفيدة في بابها غاية إن من الله علينا بكمالها ، فإن ما عندنا منها مبتور الأول والآخر (١) »

وهذا الكتاب ألفه المقري في فاس كما يفهم من كلامه .

قطف المهتصر من أفنان المختصر :

هذا شرح لمختصر الشيخ خليل ، أو حاشية على أحد شروحه الكثيرة . ألف هذا الكتاب في المشرق ؛ لأننا نجد الشيخ محمد بن يوسف المراكشي التاملي يقول في رسالة للمقري مؤرخة ببداية سنة ١٠٣٨ هـ « وأعلمونا بتأليفكم الذي سميتموه « قطف المهتصر من أفنان المختصر » هل خرج من المبيضة أم لا ؟ ووددنا لو اتصلنا منه بنسخة ، وقد اشتاق فقهاء هذا الأقليم إليه غاية كالفقيه قاضي القضاة محبكم سيدي عيسى وغيره من أخلاء خليل في كل محفل جليل » (٢)

وتنسب بعض المصادر للمقري حاشية على خليل غير قطف المهتصر (٣) ولا نستطيع أن نطمئن لهذه النسبة ما دامت الحاشية مجهولة الاسم . ولم

---

(١) راجع فهرس الفهارس ج ١ ص ٣٣٧ وذكر المؤلف كتابه هذا في نفح الطيب ج ٩ ص ٢٨٩

(٢) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ٢٣٣

(٣) انظر شجرة النور الزكية ج ١ ص ٣٠٠

يُشَر إليها في النفح ، وإن ذكر محمد الغدامسي أن للمقري حواشي على المختصر (١) لكنه لم يتحدث لنا عنها حديثا يطمئن إليه .

الشفاء في بديع الاكتفاء :

هذا أحد تآليف المقري ، ذكره أحمد الشاهيني مع كتاب « الأصفياء » للمقري أيضا في رسالة وجه بها من دمشق . إلى المقري ، وهو إذاك في القاهرة (٢) . ويفهم من فقرات الرسالة أن الكتابين ألفهما في المشرق . ولا نعرف الآن من أمر هذين الكتابين سوى العنوان .

ومن مؤلفات المقري « أنواء نيسان في أنباء تلمسان » وهو غير معروف ، ولعل المؤلف لم يتممه ؛ لأنه قال « وقد كنت بالمغرب نويت أن أجمع في شأنها (يعني بلده) كتابا ممتعا أسميه بأنواء نيسان في أنباء تلمسان ، وكتبت بعضه ، ثم حالت بيني وبين ذلك العزم الأقدار ، وارتحلت منها إلى حضرة فاس . . . فشغلت بأمور الإمامة والقرى والخطابة » (٣) ولم يخبرنا أنه أتمه إلى زمن انتهائه من تأليف النفح . ومن الكتب التي تنسب لأبي العباس « عرف النشق في أخبار دمشق » (٤) وليس بعيدا أن يكون هذا الكتاب ، لم يبرز منه للوجود سوى الاسم ؛ لأننا نجد المؤلف يقول في

(١) راجع مقدمة شرحه لمنظومة « إضاءة الدجنة . . » مخطوط بخزينة جامع الزيتونة .

(٢) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ٢٢٠

(٣) نفح الطيب ج ٩ ص ٣٤٢

(٤) رغم هذا التخليط في العنوان ، فإن جميع المصادر تذكره بصيغته تلك .

سنة ١٠٣٩ هـ « وفي نيتي أن أجمع في ذلك كتابا حافلا أسميه « نشق عرف دمشق » أو « مشق قلم المدح لدمشق » (١) وله الدر الثمين في أسماء الهادي الأمين ، وهو نظم جمع فيه أسماء الرسول عليه الصلاة والسلام ، وقد أشار إليه في فتح المتعال ، وله كتاب « البدأة والنشأة » قال المحبي كله أدب ونظم ، وتنسب إليه المكتب التالية : « الفث والسمين والرث والثمين » و « رفع الغلط عن المخمس الخالي الوسط » (٢) و « القواعد السرية في حل مشكلات الشجرة النعمانية » (٣) و « نيل المرام المنقط لطلاب المخمس الخالي الوسط » (٤) و « النمط الأكمل في ذكر المستقبل » و « أرجوزة في الإمامة » و « نظم في علم الجدول » وكان الشيخ يجيد هذا الفن ، وينسب إليه شرح على مقدمة ابن خلدون (٥) وله شرح في أربع كراريس على قصيدته التي يقول في مطلعها :

سبحان من قسم الحظوظ ... ظ فلا عتاب ولا ملامه

وذكر صاحب اليواقيت الثمينة أنه اطلع على هذا الشرح . وفي إحدى رحلات أبي العباس البحرية هال البحر واشتد ، فبقي في البحر ستة أشهر ، ألف فيها كتابا في علم الهيئة ، وجد فيه حين خرج كثيراً من

---

(١) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ٢٤٢

(٢) منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ٣٤٢

(٣) منه نسخة مخطوطة بمكتبة برلين رقم ٤٢٢٢

(٤) منه نسخة ببرلين رقم ٤١٦٩

(٥) انفرد بذكر هذا الشرح فيما اطلعت عليه من مصادر الشيخ مخلوف في شجرة النور الزكية ج ١ ص ٣٠٠

الأخطاء سببها هول البحر . وأخبرنا أنه لم يستطع إصلاحها ؛ لأن الكتاب نسخ ، وانتشر بين الناس (١) وانفرد اسماعيل باشا البغدادي بنسبة كتاب للمقري اسمه « الدر المختار من نوادر الأخبار » (٢). ويبدو أن الأستاذ وقع في غلط فاحش ؛ لأني وقفت بخزينة جامع الزيتونة على مجموع مخطوط رقم ١٨٣٦ به هذا التأليف ، ولكنه منسوب لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد المُقري الأنباري وإلى هذا المحدّث نسبه أيضا حاجي خليفة (٣) وأسلوب الكتاب بعيد كل البعد عن أسلوب المقري في كتبه ، والذي يقرب سهو البغدادي إن لم يحققه ، عدم نسبة هذا الكتاب للمقري في المصادر القديمة . ومن تآليف أبي العباس « أزهار الكمامة في أخبار العمامة » أثبت الشيخ عبد الحي الكتاني أنه اشتغل به عند رأس الرسول بالروضة النبوية .

مكانته في نفوس معاصريه

إذا كانت عناصر الشر متوفّرة في الإنسان ، وقد تكون دعامة في تركيبه الحياتي ؛ ليكون . إنساناً . فإن هذه العناصر تظهر جلية في غير قناع في المجتمعات المتأخرة ، وفي عصور الانحطاط ، وزمن فراغ الحياة القاتل .

---

(١) انظر محاضرات اليوسي ص ٥٨

(٢) راجع « إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون . . » ج ١ ص ٤٤٨ ـ أسماء المؤلفين ج ١ ص ١٥٧

(٣) انظر كشف الظنون ج ٢ ص ٢٣٩ ط مصر س ١٢٧٤ هـ .

في هذا الجو الذي يحافظ على خشونتها ، تسمو ، ويكون له أثر . ومن هنا يكثر النفاق في هذه المجتمعات ، وينهض الكيد الذي يحركه الحسد ، فيعم الاضطراب ، ويعز الأمن . وذلك الذي كان في القرون الأخيرة من الحياة الإسلامية ، وما زالت الذيول في امتداد . . لانعدام الوعي ، والتعليل الصائب ، وذلك الذي انتشر في عصر أبي العباس أحمد المقري ، وضاق به ذرعا . ترى أتبهج نفوس مثقفة ، وعقول بينها وبين تقدير القيم ، والموهوب ، جمود هما ، وبلادة حس أصحابها . أتبهج بشاب المساني لم يخالط لحيته بياض ، يأتي مدينة فاس ، فيحظى برضا البلاط ، ويتولى مكانة علمية مرموقة في القرويين ، ويكون من نصيبه بسرعة الإفتاء والخطابة والإمامة ، وهي مراكز كانت لها قيمة إذاك ؟ وتحدثت النفوس ، وكان لرائحة حديثها الكريهة هبوب ، وشعر أبو العباس . فإذا هو يقول « . . . وضاعف به كاذب حاسد افتراه ، يأكل المحاسن . ويجهل بتساويه أن يحاسن ، ويعيد الحق باطلا ، والحالي عاطلا ، ويقلب المنحة محنة ، ويرى المصافاة إحنة ، يخاتل مخاتلة الذيب ، ويكدر مناهل الخلوص والتهذيب ، ويقابل الحق الواضح بالتكذيب ، ويشتغل بما لا يعنيه . . . » وحين ذهب إلى المشرق لم يسلم من داء النفوس ، سيما في القاهرة كما تقدم . وفي هذا الوسط نفسه كان له أصدقاء يخلصون له الود ، وطلبة يقدرون قيمته (١) سيما في المشرق . فقد كان أبو العباس محترما في كثير من الأوساط .

(١) راجع رسالة في نفح الطيب ج ٣ ص ٢٢٧ بعث بها إليه من المغرب علي ابن عبد الواحد الانصاري .

وتمتع بشيء غير قليل من هذا الاحترام بما حاط به من اعتقاد في بركته ، وقربه إلى الله . فنحن نجد قاضي القاهرة الفيسي يقول « وها أنا سائل من فيض فضله أن لا ينساني وأولادي وأصحابي من الدعوات بالمغفرة . . . فإن اعتقادي أن الدعاء منكم . . . متقبل بلا ريب » ونجد أبا العباس ، يكتب « التعاويذ » في دمشق ، ويشتهر بإجادة علم الجدول ، حتى قيل : كان يستطيع أن يخرج من التراب دنانير ! ! ونستقرئ أخباره في رحلاته ، فنجده كلما نزل في بلد إلا وبادر بزيارة قبور الأولياء والدراويش (٢) . وقليل من هذا مع الانتساب « للعلم » يكفي في ذلك العصر للإحراز على مكانة بين الناس ، تفوق مكانة الزعماء السياسيين اليوم في الشعوب الإسلامية . ونحن إذ نعرف بهذا الجانب من الرجل لا نريد إثارة السخرية ، ولا قتل الأذواق ، وإنما نريد الكشف الحقيقي عن « هويّة » هذه الشخصية المغربية التي غالى الناس في قيمتها : لمكانة نفح الطيب في النفوس ، ولعدم محاولة الغوص على نفسية الرجل ، وأزمات حياته ، وعصره .

وبعد أن فقد المقري الآن أسباب ذلك الاحترام . فما هي قيمته ، ولأي شيء نحترمه إن كانت له في نفوسنا حرمة . ذلك ما نريد التعرض له في إيجاز دال ، وإيحاء هادف في القسم الأخير من هذه الدراسة .

(١) انظر ترجمته في تعريف الخلف . .